والكتاب يعد ممتعاً أيما إمتاع، ولا غنى للقارئ الكريم عن العودة إليه وتذوق حلاوته بنفسه، ففي ذلك لذة لا يغني عنها أي وصف.

شعره وديوانه:

نظم (أسامة) الشعر منذ نعومة أظافره، وظل وفياً لفنه الشعري إلى آخر حياته، وشعره يرضع من ثقافته العربية الواسعة، ويمتح من حياته الغنية العريضة، ومغامراته الشيقة، ومصائبه المحزنة، ومن الكوارث الأليمة التي نزلت به فأفقدته الأهل والمال والنشب والولد والأصدقاء والديار، والصحة والعافية والشباب.

فتغزل ووصف، وبكى واستبكى، وتصبر وصابر وجاهد وناضل، وافتخر وتندر ومدح، وعارض وساجل وسمط، وترك لنا ديواناً ضخماً، أعده ورتب أبوابه في حياته، وكان أول المعجبين بشعره الدائم النظر في ديوانه، البطل الخالد الذكر (صلاح الدين الأيوبي) رضي الله عنه وأرضاه.

روى العماد الأصفهاني، قال: "لزمت خدمة السلطان (صلاح الدين) أرحل برحيله وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقذ وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرّا بفضلها، وأن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلهما، على أن الشعراء المحدثين ما منهم إلا من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من حزنها". (الروضتين 1:247).

وشعر أسامة متفاوت في الطول والقصر، فقد تقصر الفكرة ليضمها بيت واحد أو بيتان، وقد تطول فتنوف على التسعين، كما في قصائده التي رثى فيها أهله وعشيرته.

ومؤثرات الثقافة الدينية العميقة واضحة في شعره وكذلك أثر القرآن الكريم والحديث الشريف، وآثار من سبقه من شعراء كالمتنبي والمعري وأبي فراس، ومهيار وقيس بن ذريح وغيرهم، فهو يسمط أشعارهم فيضاهيهم وقد يتفوق عليهم أحياناً بجدة معانيه ورشاقة أسلوبه وعذوبة ألفاظه.